

الدورة الحضارية في فكر مالك بن نبي -دراسة تحليلية-

The Civilizational Cycle in the Thought of Malik Bennabi

-An Analytical Study-

خشمون محمد

جامعة باتنة 1 (الجزائر)

mohamed.khachmoune@univ-batna.dz

ملخص:	معلومات المقال
تهدف هذه الدراسة بشكل أساسي إلى شرح وتحليل أفكار المفكر والفيلسوف الجزائري مالك بن نبي، فيما يتعلق بالدورة الحضارية، التي مرت بها جميع المجتمعات التي عرفت أو تعرف حضارة في تاريخ الإنسانية، ومن ثم تقديم وجهة نظره في شروط نهضة المجتمعات التي تعاني من حالة ركود حضاري، وخاصة الإسلامية منها. تم التوصل، إلى أن مالك بن نبي يرى أن هذه الدورة الحضارية التي تحدث عنها، لا تختص فقط بالمجتمعات الإسلامية لوحدها، بل أنها تعتبر بمثابة قانون يسري على كل المجتمعات الانسانية في العالم، حيث يتم ذلك وفق مراحل معينة، وذلك بعد الدراسة التحليلية المعمقة التي قام بهل لتاريخ الحضارات السابقة والمعاصرة.	تاريخ الارسال: 2023/07/14 تاريخ القبول: 2024/05/21 الكلمات المفتاحية: ✓ دورة ✓ حضارية ✓ فكر ✓ مالك بن نبي
Abstract :	Article info
This study aims to elucidate and analyze Malek Bennabi's ideas regarding the cycle of civilization and the prerequisites for the revival of underdeveloped societies, with a particular focus on Muslim societies facing numerous developmental challenges. Malek Bennabi posits that the cycle of civilization is not unique to the Muslim world but is a universal phenomenon in all human societies. According to his perspective, civilizations are characterized by successive cycles that necessitate conditions for renewal, with the religious idea being pivotal for advancement within these cycles.	Received :14/07/2023 Accepted :21/05/2024 Keywords: ✓ Cycle ✓ Civilizational ✓ the Thought ✓ Malik Bennabi

❖ **مقدمة:** يعتبر الكثير من المفكرين والفلاسفة وحتى علماء الاجتماع، مالك بن نبي واحداً من أهم عقول العصر الحديث، الذين شخصوا واقع المجتمعات الإسلامية، ووقفوا على أسباب تخلفها عن الركب الحضاري للدول المتقدمة، فكرياً وتكنولوجياً وصناعياً وعسكرياً، حيث قدم مالك بن نبي دراسة تحليلية وتشخيصية لواقع المجتمعات الإسلامية في الماضي والحاضر، كما قدم رؤيته لمستقبلها وقف فيها على أهم أسباب تقدمها في السابق على بقية الحضارات الإنسانية الأخرى، وعن أهم أسباب تخلفها في الوقت الراهن، معطياً مثلاً بالمجتمع الجزائري أثناء الاستعمار، باعتبار أنه المجتمع الأصلي الذي ينتمي إليه، كما قدم مالك بن نبي نظرة أو معادلة حضارية عرض من خلالها مجموعة من الشروط التي يمكن اتباعها من طرف كل مجتمع يريد النهضة والخروج من حالة التخلف والركود التي يعيش فيها، أسماها هو شروط النهضة، أي نهضة المجتمع للحاق بالركب الحضاري للدول المتقدمة بل وحتى منافستها، حيث يرى أن ذلك ليس مستحيلاً كما يرى بعض الناس، فما على المجتمعات المتخلفة، التي تعاني من حالة السكون والركود والتخلف إلا تحقيق مجموعة معينة من الشروط، وهي الإنسان زائد التراب زائد الوقت ممزوجين بمعامل التركيب أو الوسط التفاعلي وهو الفكرة الدينية مما ينتج حضارة، لأن التاريخ يثبت أن الحضارة تقوم وتزول وفق دورة معينة تحكمها قوانين محددة تسمى الدورة الحضارية، وأن الدافع الحقيقي لأي حضارة هو الدين أو الفكرة الدينية.

ومن هنا تقوم هذه الدراسة بعرض وتحليل وجهة نظر مالك بن نبي، فيما يتعلق بهذه الدورة، بادئة بعرض بعض الأفكار التي تعرض إليها في سلسلة كتبه حول مشكلات الحضارة، حيث تم عرض تشخيص مالك بن نبي لمشكلات الحاضر والماضي، ثم تم تقديم رؤيته المستقبلية من خلال شرح معادلته الحضارية المبنية بشكل أساسي على الفكرة الدينية، ثم تم الانتقال إلى تقديم شرح مفصل للدورة الحضارية وفق مفهومه، مع إبراز أهم الشروط التي وضعها لتحقيق النهضة، والخروج من حالة الركود والتخلف الذي تعاني منه المجتمعات الإسلامية والوصول إلى مرحلة الحضارة التي تأمل إليها، ثم تم توضيح أثر الفكرة الدينية في ذلك، ووضعية الإنسان في كل مرحلة.

❖ **تشخيص مشكلات الحاضر والماضي في فكر مالك بن نبي:** لقد تأثر فكر مالك بن نبي كثيرا بأفكار رواد ورموز الإصلاح في العصر الحديث، مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وكذلك بالشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين، حيث يعترف بنفسه في كتابه العفن، أنه ذو نزعة إسلامية حيث يقول: "...وقد حملنا معنا إلى باريس، أنا ومحمد بن الساعي، نزعة توحيدية تعزلنا أيضا عن الآخرين، من الجانب الأخلاقي على الأقل، وأظن أننا كنا فخورين بعزلتنا.. " (أورد في: بن نبي، 2007) لكنه في الحقيقة، أخذ على كل هذه الحركات ودعاوى الإصلاح التي سبقتها، والتي عايشها أنها لم تقدم مشروعا حضاريا يخرج الأمة مما هي فيه، حيث أن كل هذه الحركات كانت تركز على جانب معين بعضها تركز على مقاومة الاستعمار، والأخرى على الجانب السياسي، والأخرى على جانب التربية والوعظ والدعوة العقائدية، وما شابه ذلك، حيث كانت كلها عبارة عن رد فعل لما يحدث من أوضاع في المجتمع، ولا تحمل في طياتها مشروعا لمجتمع حضاري مأمول، وهنا قال عنه أحد الباحثين: "ولهذا فهو ينتقد كلا الفريقين التحديثيين والإصلاحيين، بأنهم لم يحددوا بدقة مكنن الأزمة، فإتجه كل إلى عرض من أعراضها، في حين أن الأزمة أعمق من هذه الأعراض كلها.. " (أورد في: بن الحسن، 2000) فقد كان فكر مالك بن نبي لا يركز على الخطاب الذي ينتقد الغرب والاستعمار، بقدر ما كان يركز على المشكلات والأسباب الذاتية، التي يعاني منها العرب والمسلمين، خاصة تلك المرتبطة منها بعالم الأفكار كما كان يسميه في كتبه.

لقد شرح أو شخص مالك بن نبي المشكلات الأساسية التي تعاني منها الحضارة الإسلامية، بشكل خاص كمثال عن الحضارات التي تمر بمرحلة ما بعد الحضارة، أي بعد أن زالت حضارتها مع دولة الموحدين في كتابه المشهور شروط النهضة، ففي الباب الأول بالذات الذي سماه الماضي والحاضر، الذي هو في الحقيقة باب تشخيص المرض، أراد من خلاله أن يضع يده على أسباب ما نحن فيه من تخلف وبُعد عن صناعة التاريخ، بدأه بأنشودة تتحدث عن نور الإصلاح، وعن البهلوانات التي كان يشير بها إلى رجال السياسة وال دراويش والطرق الصوفية التي تقوم على رفع ضجيجها، حتى لا يسمع الشعب هدى الأنبياء الذي انطلق على يد العلماء، ثم أشار من خلال هذا الباب إلى ثلاثة أفكار أساسية:

■ **الفكرة الأولى:** أن العالم الاسلامي اليوم لازال يفكر ويقوم بدور الأبطال وليس بدور التاريخ، بمعنى أن الاستعمار لما حل بالعالم الإسلامي، فكك المؤسسات واستعمر الأرض والأوطان، وأن ردت فعل المسلمين كانت من أجل الشرف ونيل الشهادة، وليس من أجل استرداد الحرية وبناء مشروع النهضة بالمجتمع، ولهذا يرى أن دور البطولة قد انتهى، ويعطي مثال بالأمير عبد القادر، حيث رغم علمه باستحالة التغلب على فرنسا، إلا أنه قاومها من أجل شرفه كمسلم وكعربي، حيث أن هذا الشرف لم يسمح له بأن يقف مكتوف الأيدي أمام الاستعمار الفرنسي، رغم وعيه بأن موقفه كان ضعيفا تماما أما القوة العسكرية الغاشمة للاستعمار الفرنسي، (أورد في: بن نبي، 1986). فشرفه كعربي وكمسلم جعله يقاوم لسبعة عشر سنة، حتى قضي على ثورته تماما، وكان هذا حسب رأي مالك بن نبي، ما يمثل نمط تفكير سائد في العالم الاسلامي أي مواجهه الخصم أو العدو بذهنية البطولة، وليس بذهنية صناعة التاريخ، أي أن هدفهم لم يكن تغيير الأوضاع، ولكن شرفهم كعرب وكمسلمين كان لا يسمح لهم باستسلام، حيث يرى أن هذه مشكلة كبيرة في ذهنية المسلمين، أي أنه يجب الانتقال من ذهنية مواجهة الخصم بذهنية وممارسة البطولة، إلى ذهنية ممارسة أو صناعة التاريخ والحضارة لأن صناعة التاريخ تتطلب عمل وفق سنن ونظرة إلى المستقبل، والسعي دائما للتغيير نحو الأفضل.

وفي هذه النقطة بالذات، تعرض مالك بن نبي لانتقادات كثيرة كانت تدور كلها تقريبا، حول مسألة الأولوية هل التفكير الأول يجب أن يكون في تخليص المجتمع أولا من ظلم الاستعمار، وتحريره من العبودية أم في البحث عن كيفية تحقيق شروط نهضته وتحضره، ثم هل كان المستعمر سيسمح بذلك أصلا، فقد وصف هذا كنوع من البحث عن المثالية الذي يصعب تحقيقها على أرض الواقع، رغم أن مالك بن نبي قد اشاد ببعض مجهودات جمعية العلماء المسلمين، التي بدأت نشاطها في تغيير الأفكار ومحاربة الطرقية والدروشة مع سنة 1925 قبل اعتمادها بشكل رسمي سنة 1931، وقد استمر هذا حسب رأيه حتى سنة 1936 أي سنة الزلة أو النهاية، كما كان يراها مالك بن نبي، بعد مشاركة جمعية العلماء المسلمين في مؤتمر باريس (أورد في: مسقاوي، 2013) حيث سما ما مالك بن نبي هذه المرحلة ببادرة الحضارة وليس بالحضارة، أي كبداية محاولة فقط للتغيير

الفكري في المجتمع الجزائري المستعمر في تلك الفترة، حيث يقول مالك بن نبي عن هذه الفترة التي مرت بها الجزائر في كتابه بين الرشاد والتهيه: "الجزائريون الذين من جيلي، يعلمون أنها السنوات التي زحزحت الثقل، الذي وضعته قرون ما بعد الموحدين على كاهل الوطن .. لقد كانت بالنسبة للشعب الجزائري فترة صحوة، استعاد فيها رشده وأدرك فضائله، كما أدرك نقائصه التي دأب الاستعمار على تنميتها". (أورد في: بن نبي، 2002).

■ **الفكرة الثانية:** ترتبط بدور السياسة والفكرة، حيث رأى أن السياسيين الذين رفعوا شعار المقاومة السياسية في الحقيقة لم يبنوا مجتمعا يقاوم الاستعمار، بقدر ما كانوا ينادون ويرفعون شعارات للمطالبة بحقوق الأهالي والجزائريين، دون أن يسعوا لتغيير نفسية الانسان الجزائري، الذي كان يرى فرنسا على أنها القوة التي لا تقهر حيث يرى مالك بن نبي، أنه إذا أردنا أن ننظر إلى المستقبل، فلا بد أن نكف عن ممارسة العمل السياسي المطلبي وننتقل إلى بناء الأفكار، فقد كان يرى أن جمعية العلماء هم من أخذوا بزمام المبادرة لأنهم رفعوا شعار "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"، (أورد في: بن نبي، 1986) لأن المسلمين لا يمكن أن يغيروا أوضاعهم إذا بقوا بذهنية المطالبة، بل يجب أن ينتقلوا إلى مرحلة الفعل، فحسب رأي مالك بن نبي أن السياسيين لا يبنون القيم بقدر ما يطالبون بمطالب غير قابلة للتحقق، حيث يضيعون كل الوقت في الأخذ والرد مع المستعمر دون أن ينالوا منه شيئا، يستحق تضييع كل ذلك الوقت، كان من الأولى استغلاله وتوجيهه إلى صناعة التاريخ، من خلال العمل على تغيير الأفكار الخاطئة المعطلة للنهضة، واستبدالها بأخرى ايجابية تساعد في دعم وبناء المشروع الحضاري للمجتمع، كما تحدث مالك بن نبي هذا السياق عن عمر الأفكار أي أن للأفكار أعمارا كباقي الكائنات الحية، فهناك أفكارا حية وهناك أفكارا ميتة، وأن هذه الأفكار تسغل في إطار الحرب الأيديولوجية بن المستعمر والشعوب المستعمر (bennabi,2005.p127-128) .

■ **الفكرة الثالثة:** فقد تحدث فيها مالك بن نبي عن دور الوثنية في تخلف المجتمع، حيث استشهد مالك بن نبي بمقولة غاندي، حول فصل السياسة عن الدين: "أنه إذا فصلت السياسة عن الدين فقدت معناها، كل طفل في مدرستنا يدري..." ويشير مالك بن نبي في هذه النقطة، إلى أنه عندما تغرب الفكرة بيزغ الصنم، وقد أعطى مثال بالمجتمع الجزائري

رغم إسلامه إلا أنه كان يعيش في مرحلة الوثنية حتى سنة 1925، إذ سيطرت عليه الدروشة وزوايا الفكر الصوفي الطرقي، الذي يصور فرنسا على أنها قضاء وقدر حيث ابرز الدور الكبير الذي قامت به جمعية العلماء المسلمين، بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس في التخلص من هذه الوثنية، وبداية زرع الفكر الاسلامي الصحيح، كما كان لدى السلف الصالح، وكذلك في نشر الفكر الاصلاحى الذي يحارب الأفكار الاستعمارية الهدامة، وكما كان يرفض الوثنية الدينية، كان يرفض الوثنية السياسية أو كما يسميها الدروشة السياسية، حيث يصور الورقة الانتخابية على أنها وثن لا يغني ولا يضمن من جوع، حيث يقول أن المعجزات لا تحدث بورق الانتخابات (أورد في: بن نبي و شروط، 1986) ويقول أحد الباحثين معقبا على مالك بن نبي: "إن اختلال العلاقة بين الفكرة والشخص، يؤدي إلى بروز تطرف، يثمر تحول الشخص إلى وثن..". (أورد في: البناء، 2013).

كما أشار مالك بن نبي في هذا الفصل، إلى فكرة القابلية للاستعمار، وأن هذه القابلية لذل الاستعمار لن تزول بالخطابات السياسية ذات الطابع الأدبي، وإنما بالتغير أو التحول النفسي، الذي يحول الفرد شيئا فشيئا إلى القيام بوظيفته الاجتماعية. (أورد في: بن نبي، 1986).

ومن خلال هذين البابين في كتاب شروط النهضة، أراد مالك بن نبي أن يشخص مشكلات وأمراض الحاضر والماضي، بالنسبة للمجتمعات الإسلامية، لتسهيل عملية الانتقال السليم إلى أفق المستقبل.

وفي هذا السياق، يرى مالك بن نبي في كتابه تأملات، أن مشكلات الحضارة يمكن أن تأتي بشكل أساس من ثلاثة أشياء، عالم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء كما أورد ذلك في قوله "فالصعوبات إذا في عمومها تنشأ من هذه النواحي الثلاث: من عالم الأشخاص ومن عالم الأفكار ومن عالم الأشياء..". (أورد في: بن نبي، 2002).

❖ **رؤية مالك بن نبي للمستقبل:** في الباب الثاني من كتاب شروط النهضة، وضع مالك بن نبي رؤيته للمستقبل من خلال التحدث عن الأفكار الجينية الأولى، التي تحولت فيما بعد إلى كل كتبه، والتي توضح نظريته في دراسة الحياة والحضارة، حيث يقول: "...إن الحديث عن المرض أو الشعور به لا يعني بدهة الدواء.." فقد أشار هنا إلى بعض رواد الإصلاح في العصر الحديث، وانتقدهم بأنهم تحدثوا عن المرض وتشخيصه لكنهم لم يقدموا الدواء، مثل رجل السياسة جمال الدين الأفغاني الذي يرى بأن المشكلة السياسية تحل بوسائل سياسية ورجل الدين محمد عبده الذي يرى أن مشكلة المجتمعات الإسلامية لا تحل إلا بإصلاح العقيدة والوعظ، فهم حسب رأيه لم يعالجوا المرض في حد ذاته، وإنما عالجوا الأعراض الناتجة عن مضاعفاته، وهو حالة التخلف والركود الحضاري، ويشبه ذلك بمرض السل والحمى الناتجة عنه، فهم يعالجون الحمى بالمسكنات ولا يعالجون المرض في حد ذاته أي أنهم يحاربون الاستعمار والامية ولا يحاربون السبب الحقيقي وراء ذلك، وهو التخلف الفكري الحضاري الذي كان السبب الأساسي في حدوث ذلك الاستعمار، وهنا يطرح مالك بن نبي فكرة "أنه هناك طريقتين لعلاج هذه الحالة المرضية، إما القضاء على المرض وإما إعدام المريض نفسه". (أورد في: بن نبي، 1986).

فهو يشبه المجتمعات الإسلامية بالمريض الذي يدخل الصيدلية، وهو لا يدري مرضه أصلا، حيث دخلت هذه المجتمعات صيدلية الحضارة الغربية باحثة عن دواء مجهول، دون أن تشخص مرضها، وقد وصف مالك بن نبي هذه المرحلة بمرحلة بادرة الحضارة، أي محاولة تحصيل الحضارة، هنا ناقش مالك بن نبي قضية مهمة جدا وهي أننا في تعاملنا مع الغرب، نقوم بتكديس الأفكار كما نكدس الأشياء، ولكن بناء الحضارة وبناء النهضة في الحقيقة يحتاج إلى عملية بناء وليس إلى عملية تكديس، حيث أن الشباب المسلم عندما يذهب إلى الغرب لا يعود بأفكار، بقدر ما يعود بشهادات من أجل المظاهر، فهو يكس مثل التجار، وهنا يقول مالك بن نبي في كتابه مشكلة الثقافة: "...لكننا اليوم أصبحنا نرى مرضا جديدا مستعصيا هو (التعالم)، وإن شئت فقل الحرفية في العلم، الصعوبة كل الصعوبة في مداواته (بن نبي، 2000).

لذلك فإننا نحتاج اليوم لتغيير هذه الذهنية، فإن الحضارة هي التي تلد المنتجات، وليست المنتجات المكسدة هي التي تلد الحضارة، حيث يقول أن "الحضارة هي التي تلد منتجاتها وأنه سيكون من السخف والسخرية حتما أن نعكس هذه القاعدة.." (أورد في: بن نبي، 1986).

فالعالم الاسلامي يقوم بتكديس منتجات الحضارة الغربية، دون أن يسعى إلى صنع منتجات خاصة به، وبناء حضارته بنفسه، مما كون لديه دون قصد "حالة حضارة" وليس حضارة حقيقية ناجمة عن التخطيط، كما فعلت روسيا واليابان. فمن السخف أن نحاول صناعة حضارة من خلال منتجاتها، فلا يمكن ان تبني حضارة بشراء منتجات حضارة أخرى، لأن ذلك محال كما وكيفا، فلا يمكن لحضارة أن تباعك جميع منتجاتها فشاء المنتجات لا يمكنك من تعلم كيفية صنعها .

■ **معادلة الحضارة في فكر مالك بن نبي:** بعد ما قاله سابقا، انتقل مالك بن نبي في بابه الثاني من كتاب شروط النهضة، إلى فكرة أساسية طبعت السمة الغالبة على فكره والعلامة المميزة لإنتاجه العلمي، وهو أن الحضارة يحكمها قانون يرفعها أحيانا ويضعها أحيانا أخرى، وذلك وفق شروط معينة وهي شروط النهضة، ثم يطرح فكرة كيف نبدأ النهضة، حيث نحتاج أولا أن نعرف كيف تبني الحضارة، وإذا كنا نريد أن نعرف حضارة ما، فيمكن أن نأخذ أي منتج حضاري ونقوم بتحليله، فنجد من وراء ذلك الانسان والتراب والوقت، فالتراب يشير إلى المادة، أما الوقت يكون بمعناه الاجتماعي أكثر وليس بمعناه الطبيعي، وقد كتب هذه المعادلة على طريقة علماء الكيمياء، كما يلي: (أورد في: بن نبي، 1986).

ناتج حضاري = انسان + تراب + وقت

وقد أشار مالك بن نبي، أنه تعمد استخدام كلمة تراب بدل كلمة مادة، حيث عرف هذه الأخيرة في كتابه الظاهرة القرآنية كما يلي: " من حيث المبدأ: المادة هي العلة الأولى لذاتها، وهي أيضا نقطة البدء في الظواهر الطبيعية.." (بن نبي، الظاهرة، 2000، ص73) ، كما يقول أيضا عن المادة "..فهي مخلوقة بواسطة حتمية مستقلة عن جميع خواصها.." (أورد في: بن نبي، 2000).

أما عن الأشخاص، فيقول مالك بن نبي في كتابه ميلاد مجتمع العلاقات الإنسانية: "فالشخص في ذاته ليس مجرد فرد يكون النوع، إنما هو الكائن المعقد الذي ينتج الحضارة، وهذا الكائن هو ذاته نتاج الحضارة، إذ هو يدين لها بكل ما يملك من أفكار وأشياء وبعبارة أخرى كل العوالم الاجتماعية الثلاثة يتفق مع الصيغة التحليلية، التالية: **نتاج حضارة = انسان + تراب + وقت** " (أورد في: بن نبي، 1986).

قبل أن نفسر هذه المعادلة الحضارية، لابد أن نعرف أولاً تصور مالك بن نبي للحضارة، من خلال التعريف الذي قدمه لها في كتابه مشكلات الأفكار: ".. يمكن تعريف الحضارة في الواقع بأنها جملة العوامل المعنوية والمادية، التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة للتطور.." (أورد في: بن نبي، 2002) ، فحسب مالك بن نبي أنه إذا أردنا أن نحل مشكلات الحضارة، فلا بد أن نحل هذه المشكلات الثلاث، مشكلة الانسان ومشكلة التراب ومشكلة الوقت ".. فبناء الحضارة لا يكون بتكديس المنتجات وإنما يكون بحل هذه المشكلات الثلاث (أورد في: بن نبي، 1986).

ثم يقوم بتحليل لهذه العناصر الثلاثة، حيث يقول أنه إذا اردنا أن نبني حضارة لا بد أن نقوم بالتركيب الديناميكي لهذه العناصر الثلاثة، للإنسان وللمواد الخام أو للطبيعة في زمن اجتماعي منتج، لكن هذه العناصر الثلاثة حين تجتمع لا تحدث حضارة بطريقة عفوية، وإنما تحتاج إلى مُركب مزج أو إلى وسط يمكنها ويؤهلها لتتفاعل فيما بينها، حتى تنتج لنا الحضارة المرجوة، وهو حسب رأيه الفكرة الدينية، حيث توصل مالك بن نبي لطرح هذا الوسط أو المركب "catalyseur" بناء على رأي الأنثروبولوجين وعلماء الاجتماع والتاريخ، الذين وجدوا من خلال دراساتهم أن جميع الحضارات بنيت في أحضان الفكرة الدينية أو في أحضان الدين سواء كان الاسلام او غيره.

كما يشير مالك بن نبي، إلى أنه يمكن حل مشكلة الإنسان مثلاً، من خلال تحليل كيفية تأثيره، فالإنسان يؤثر بماله أو بعمله أو بأفكاره، كما قدم تصوراً عن بعض المشكلات المرتبطة بعالم الأشخاص، حيث يقول في كتابه تأملات "إنه من الطبيعي أن نتصور المشكلات في عالم الأشخاص بسهولة، إذا ما كان في عشيرة فئة تدعو إلى الشر بمعنى أنهم مخربون، إذا كان جانب من الأمة يبني وآخر منها يخرب، فهذا خلل كبير في عالم الأشخاص.." (أورد في: بن نبي، 2002).

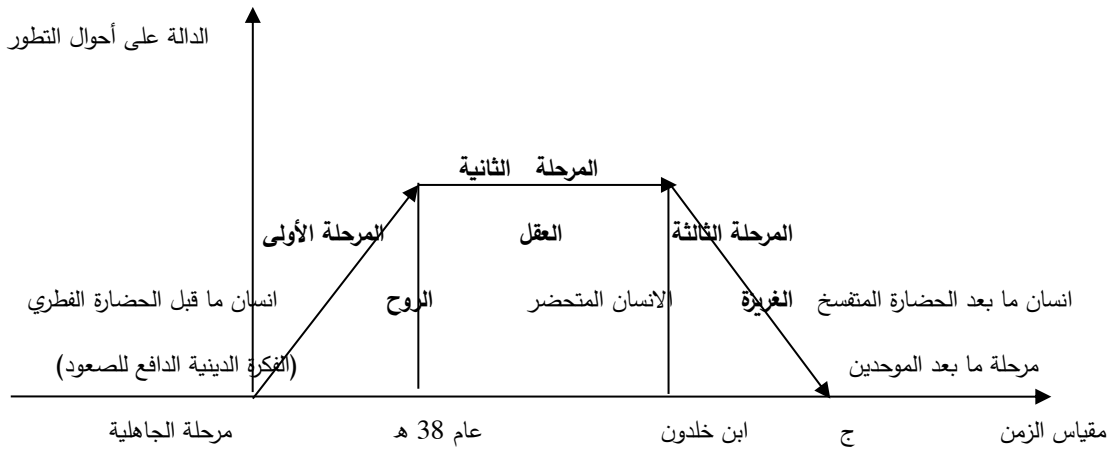
فإذا أردنا أن نعيد الفاعلية للإنسان، فلا بد أن نعيد الفاعلية للأمور الثلاثة السابقة، وهنا اقترح فكرة توجيه هذه العناصر الثلاثة، لأن الأمة مليئة بالناس والمال والأفكار، لكن كل هذا ركام لا يحدث نهضة، فتوجيه المال يتمثل في تحويله من ثروة راكدة إلى رأس مال متحرك ومنتج، أما الأفكار يتمثل في إعادة توجيه الثقافة الإسلامية حيث يرى أن المسلمين تحكمهم ثقافة ما بعد الموحدين، وهي ثقافة تخلف تتعدم فيها الرؤية الكلية وتسيطر عليها الثقافة الجزئية المليئة بالدروشة، حيث فقدت اتصالها بنماذجها الأصلية، وأصبحت تمثل ظاهرة كلامية أكثر منها رد فعل، حيث يقول في هذه النقطة في كتابه من أجل التغيير: "في الواقع فإن أفكارنا لا يصنعها فقط (الفصحاء) الذين يتحدثون باحتقار وأحياناً بانفعال ولكن أيضاً يصنعها الحركيون فالأولون يدخلون إلى دورة الأفكار قاطعاً منهجياً، أما الحركيون فيفسدون الأفكار الخاطئة التي لا علاقة لها بالحياة، وبالمشاعر وبمتابع الشعب الجزائري." (أورد في: بن نبي، 2005)، وفصلها بشكل كبير في كتابه مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي وكتاب مشكلة الثقافة.

❖ الدورة الحضارية مراحل الحضارة في فكر مالك بن نبي: لقد قسم مالك بن نبي

الدورة الحضارية إلى ثلاث مراحل أساسية، وهي مرحلة الصعود أو الروح ومرحلة الأوج أو العقل ومرحلة الانحدار أو الغرائز وهو في ذلك يتقارب نوعاً ما مع ابن خلدون، حين تحدث عن حركة أو دورة التاريخ ومرور الدولة بثلاثة مراحل، وهي مرحلة الظهور والنشأة ثم مرحلة النضج والاكتمال ثم مرحلة الهرم والشيخوخة والزوال، حيث وجدنا في كتابه القضايا الكبرى لمالك بن نبي، حديث عن ابن خلدون من طرف أحد مقدمي الكتاب، يعترف له فيها بالأسبقية

في دراسة حركة التاريخ والتنبؤ بمستقبله وهو التالي: ".بينما مرت ستة قرون قبل أن يعترف لابن خلدون كأب لفلسفة التاريخ...فهو المنشئ للتوقع وللرؤية المستقبلية" (أورد في: بن نبي، 2000)، لكن ذلك طبعا مع مراعاة الفارق، فهذا الأخير يتحدث عن الدولة ودور العصبية في نشوئها وتطورها وعن دور الترف في زوالها، حيث يقول هنا مالك بن نبي أيضا عن ابن خلدون في كتابه وجهة العالم الاسلامي: "كان ابن خلدون وحده هو أول من استنبط فكرة (الدورة) في نظريته عن الأجيال الثلاثة...فقد رد نطاق الحضارة إلى حدود العصبية الأسرية...فإنها تدفعنا إلى تأكيد الجانب الانتقالي في الحضارة" (بن نبي، وجهة، 2002، ص28) (أورد في: بن نبي، 2002). أما مالك بن نبي فيتحدث عن دور الفكرة الدينية في ظهور الحضارة ويربطها بالروح، ثم يتحدث عن دور العقل في وصول الحضارة إلى أوجها، ثم عن دور الغرائز في انحدارها وزوالها، ويسقط هذا على نوعية الانسان الذي يصاحب كل مرحلة، أي انسان ما قبل الحضارة ثم الانسان المتحضر، وأخيرا الانسان ما بعد الحضارة، ممثلا ذلك بمنحنى به مرحلة صعود ومرحلة استقرار نسبي ثم مرحلة انحدار، وذلك كما يلي:

مقياس القيم النفسية والاجتماعية



منحنى الدورة الحضارية عند مالك بن نبي

المصدر (بن نبي، مشكلة الأفكار، 2002، ص44) و(بن نبي، شروط، 1986، ص66)

أراد مالك بن نبي، أن يقول من خلال هذا المنحنى، أن الحضارة تخضع في ظهورها وزوالها إلى سسن الكون، كما يذهب إلى ذلك العديد من المفكرين العرب وحتى الغربيين، حيث يبدأ كلامه عن هذه الدورة الخالدة بمقولة الفيلسوف "نيتشة": "إنه من السنن الأزلية أن يعيد التاريخ نفسه، كما تعيد الشمس كرتها من نقطة الانقلاب" (أورد في: بن نبي، 1986) .

فمالك بن نبي يرى أن المرحلة الأولى أو مرحلة الروح، لابد أن تكون مرتبطة بفكرة ما، حيث يقول في كتابه مشكلة الأفكار: " إن الحضارة ما هي نتاج فكرة جوهريّة تطبع على المجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ" (أورد في: بن نبي، 2002) ، وغالبا ما يربط مالك بن نبي هذه الفكرة بالدين، ويسمّيها الفكرة الدينية أي كمركب "catalyseur"، حيث أن هذه الأخيرة حسب اعتقاده هي الوحيدة القادرة على الدخول على المركب الثلاثي للحضارة الذي تحدث عنه، وهو الانسان والتراب والوقت، من أجل الحصول على منتج الحضارة، حيث أن العناصر الثلاثة موجودة في كل وقت ولكن مجرد وجودها هكذا لا ينتج أو يخلق أي حضارة فهو يعطي مثل بالأكسجين والهيدروجين المشكلين للماء، فمجرد وجودهما هكذا دون عامل خارجي لا ينتج أو يشكل الماء، (أورد في: بن نبي، 1986) ، فالفكرة الدينية هي وحدها القادرة على المزج بين هذه العناصر الثلاث، لإنتاج الحضارة، فهي القادرة على كبت غرائز الانسان المركبة فيه بطبيعته أو بفطرته، وهي القادرة على إعادة توظيف هذه الغرائز في الحضارة من خلال بناء مجتمع متماسك، (أورد في: بن نبي، 1986) فالحضارة حسب مالك بن نبي، تولد مرتين المرة الأولى مع الفكرة الدينية، والمرة الثانية مع دخول الفكرة الدينية في الانسان، ودخولها بالتالي في التاريخ أي بدخول الفكرة الدينية في الانسان، تصبح فاعلة في التاريخ لأن الانسان يكون فاعل في التاريخ.

أما بالنسبة للإسلام، فقد حصل هذا الميلاد في وقت واحد، فالعرب كانوا عبارة عن بدو بسطاء وليسوا خليطا من الأفكار والفلسفات والأعراق والأديان .. أي عندما ولدت الفكرة الدينية عندهم دخلت في نفوسهم مباشرة، وبالتالي في التاريخ مباشرة وثم انتشرت الحضارة العربية الاسلامية بعد ذلك بشكل سريع وكبير (Bennabi,2006, p23-24) .

يقول مالك بن نبي في كتابه مشكلة الثقافة: "إن روح الاسلام هو الذي خلق من عناصر متفرقة كالأنصار والمهاجرين أول مجتمع اسلامي... وقوة التماسك هذه جديرة بأن تولف لنا حضارتنا المنشودة، وفي يدها-ضمانا لذلك- تجربة عمرها ألف عام، وحضارة ولدت على أرض قاحلة، وسط البدو ورجال الفطرة والصحراء" (أورد في: بن نبي، 2000) على خلاف الفكرة المسيحية لأنها لما ولدت أول مرة، ولدت بين شعوب وأعراق مختلفة وغير متجانسة نوعيا وفكريا، أي خليط من الأعراف والفلسفات والأديان ولم تصبح فاعلة في التاريخ إلا بعد مدة زمنية طويلة مع الشعوب الجرمانية البسيطة، فمالك بن نبي حاول الاستفادة من حركة الحضارة المسيحية في تفسير الحضارة الاسلامية دون المطابقة التامة، حيث كان يريد أن يقول أن كل الحضارات لا بد أن تنشأ بدفعة قوية من فكرة دينية، خاصة إذا كان هناك شعبا في مرحلة فكرية بسيطة أي مرحلة قبل الحضارة، كما كان العرب قبل الاسلام أو القبائل الجرمانية في أوروبا، حيث أشار هنا إلى فكرة أن الدين لا يجب أن يكون بالضرورة صحيحا أو وحيا من السماء، بل فقط يجب أن يركز على فكرة الوعد الغيبي بحياة أفضل، كما هو الحال في الاسلام أو المسيحية، كما انتقد مالك بن نبي التفكير الماركسي في تحليله للتاريخ، حيث يقول في كتابه من أجل التغيير: "...فتفسيره للعلم عبر مسلمتيه، المادية الجدلية والمادية التاريخية، يتضمن منذ البداية منهجا ميتافيزيكيا، أفضى في جوانب أخرى لعناء كبير.." (أورد في: بن نبي، 2005) كما يقول في كتابه المسلم في عالم الاقتصاد، ناقدا النظرية الماركسية: "إن النظرية الماركسية التي ترد المشكلة الانسانية كلها إلى العوامل الاقتصادية، تغفل بعض الأشياء الجوهرية في الظاهرة الاجتماعية، أو تغض من شأنها، ولكن هذه النظرية صادقة في الحدود التي يمكن أن تفسر فيها الظاهرة الاجتماعية تفسيرا اقتصاديا"، (أورد في: بن نبي، 2000)، فمالك بن نبي كان يرفض وجود حضارة شيوعية، لأن المنطق التحليل الذي جاء به ماركس وأفكاره الشيوعية حسب اعتقاد مالك بن نبي، كانت ناتجة عن مشكلة وأزمة في الديانة أو الحضارة المسيحية بالدرجة الأولى، أي أنها كانت مرتبطة بفكرة دينية في الأساس أو على الأقل العامل الأخلاقي.

أما في المرحلة الثانية أو مرحلة العقلاني تزدهر فيها العلوم والفنون، فهي المرحلة التي تصل فيها الحضارة إلى أوجها، ويسيطر عليها الفكر العقلاني، وينتج من خلالها الإنسان المتحضر الذي يعيش تجربة الحضارة وهنا يبدأ النقص في فاعلية الفكرة الدينية، حيث يقول مالك بن نبي أن "نقصا في فاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية، وأن هذه الفكرة تظل مواصلة لنقصها منذ أن دخلت الحضارة منعطف العقل" (أورد في: بن نبي، 1986)، حيث تبدأ الغريزة في التحرر من سيطرت الفكرة الدينية، ويبدأ الانخفاض في المستوى الأخلاق شيئا فشيئا، حتى يبلغ تمامه عندها يبدأ الطور الثالث للحضارة أو مرحلة الغريزة، التي تنتج إنسانا منحلا أخلاقيا متفسخا حضاريا ففي هذا الطور تفقد الفكرة الدينية سيطرتها تماما وينتهي دورها ووظيفتها الاجتماعية نهائيا، فيدخل المجتمع إثر ذلك في ظلمات التخلف أو كما يسميه مالك بن نبي في ليل التاريخ، ويصعب عليه إنتاج الحضارة من جديد لأن الفكرة الدينية التي كانت الدافع الأساسي لقيام الحضارة، تكون قد ماتت تماما وللنهوض بالحضارة مجددا لابد من إعادة إحيائها للصعود في منحنى الدورة الحضارية من جديد (Boukrouh, 2017).

❖ **الإنسان والدورة الحضارية في فكر مالك بن نبي:** يقول مالك بن نبي في كتابه تأملات: "فإنه ينبغي لنا أن نلاحظ بأن صلة الفرد بالحضارة أو مكانه منها في ثلاث مراحل: فالإنسان إما أن يكون قبل الحضارة، وإما أن يكون في نعيم الحضارة، وإما أن يكون قد خرج من الحضارة.." (أورد في: بن نبي، 2002).

إن الإنسان ما قبل الحضارة في فكر مالك بن نبي، هو الإنسان الذي لم تدخل عليه حضارة سابقة أو هو الإنسان الطبيعي أو إنسان الفطرة، مثل العرب البدو الذين كانوا يعيشون قبل الاسلام في الجاهلية في شبه الجزيرة العربية، الذين كانوا يعيشون حياة بسيطة أو الشعوب الجرمانية البدوية البسيطة بالنسبة للحضارة الأوروبية المسيحية، الذين بدأت معهم دخول الفكرة الدينية المسيحية إلى التاريخ، وهنا يصف مالك بن نبي نوع الإنسان الذي يعيش في مثل هذه المجتمعات، بالإنسان ما قبل الحضارة أو الإنسان الفطري أو الإنسان الطبيعي أو بعبارة أخرى الإنسان الخام، القابل للتأثر بسهولة بالفكرة الدينية وللتفاعل معها بشكل ايجابي (أورد في: بن نبي، 1986).

أما الإنسان الحضاري فهو الانسان الذي يعيش تجربة الحضارة في مرحلة الأوج، ويمكن حتى أن يعيش مرحلة الانحدار أو تفسخ وانحلال هذه الحضارة، في حين أن الانسان ما بعد الحضارة هو الإنسان المتفسخ حضاريا أو الذي يعيش مرحلة ما بعد الحضارة، أي يعيش مرحلة انحدار الحضارة، فيصبح فاقدا للقدرة على اعادة انتاج الحضارة، إلا إذا أعيد إنتاجه مرة أخرى، وهنا يضرب مالك بن نبي مثالا من العلوم الطبيعية، بحكم تكوينه كمهندس، فيشبهه إنسان ما بعد الحضارة بجزيء الماء قبل أن يدخل في خزان انتاج الطاقة الكهربائية، أي تحويله إلى طاقة كهربائية، حيث يكون هذا الأخير في هذه المرحلة مشحونا بالطاقة، ولكن بعد خروجه والاستفادة من الشحنة أو الطاقة التي يحملها، يصبح هذا الجزيء فاقدا للطاقة، ولا يمكن إعادة انتاج الكهرباء منه لأنه لا يحمل أي طاقة، ولابد من إعادة شحنه عن طريق عملية تبخير وتكوينه من جديد مرة أخرى، وهذا هو حال الإنسان بالنسبة لمالك بن نبي، حيث يرى أن انسان ما بعد الحضارة يكون منهكا ومستنزفا، ولابد من إعادة إنتاجه عن طريق إرجاعه إلى أصوله الأولى أو للعقيدة الإسلامية الصحيحة، (أورد في: بن نبي، 1986) ، حيث يتقارب في هذا كثيرا مع الفكر السلفي، الذي كان سائدا في تلك الفترة، الذي يرى أن انتاج الانسان المسلم من جديد لا يكون إلا بإرجاعه إلى مرحلة السلف الصالح، الذي كان يحمل الفكر الديني الصحيح الخالي من كل البدع والخزعبلات والدروشة.

وهنا يرى مالك بن نبي، أن الحضارة العربية الاسلامية لا يمكن أن تنتج من انسان متفسخ حضاريا ملوث بأفكار عقائدية وسلوكية خاطئة، وكذلك بأفكار سياسية وثنية كما يسميها، أي الانتقال من عبادة قبة الوالي إلى عبادة قبة البرلمان أو من عبادة التعويذة إلى عبادة ورقة الانتخابات، فهذا الانسان حسب مالك بن نبي إذا لم يعبر بمرحلة التكرير أو اعادة الانتاج أو اعادة البرمجة من جديد، على الأصول الأولى لتعاليم وأفكار الدين الإسلامي، يصعب عليه أو يستحيل أو يكون قادرا على إنتاج الحضارة من جديد، لأن حاله يكون مثل حال جزيء الماء مسلوب الطاقة.

❖ **خاتمة:** رغم ما قدمه مالك بن نبي من أفكار، لاقت استحسانا كبيرا في أوساط الباحثين والمفكرين، خاصة في مجالي المجتمع والحضارة، إلا أن فكره لم يسلم من الانتقادات التي كانت تدور كلها حول فكرة المثالية، التي طبعت بعض تحليلاته، واعتبرت الكثير من القضايا التي طرحها، خاص بالنسبة للومه على المفكرين والسياسيين ولجمعية العلماء المسلمين بالذات، فهل كان بإمكانها فعلا العزوف عن الحياة السياسية بشكل كلي، وعدم المشاركة في أي شيء بصفة نهائية، في ظل الظروف التي كانت تعيشها وتمر بها والضغوطات والمضايقات التي كانت تتعرض لها هذه الأطراف الفكرية والسياسية من طرف المستعمر.

كما انتقده بعض المفكرين حول الكيفية أو الطريقة المثالية التي طرحها للتحرر من الاستعمار، أي بمشروع النهضة الذي كان يدعو إليه، أي بخلق مجتمع متماسك مشبع بالأفكار الدينية الإسلامية، فهل كان يمكن فعلا خلق هذا المجتمع من الناحية الواقعية، دون امتلاك أدوات هذه العملية، فهناك حكومات قد تمنع هذا، كما أن هناك وجود الاستعماري يمكن أن يعوق ذلك، فمالك بن نبي انتقد كثيرا في مسألة التقليل من شأن الاستعمار والإنقاص من شدة تأثيره السلبي على المجتمع، خاصة على المستوى الفكري.

كما انتقد مالك بن نبي أيضا فيما يتعلق بالمقاربات التي عملها بين الظواهر الطبيعية والظواهر الإنسانية، أي كثرة استخدامه للأمثلة المستمدة من العلوم الطبيعية، ومحاولة إسقاطها على الإنسان صاحب العقل والإرادة، وخاصة في مسألة تشبيهه ببعض العناصر الموجودة في الطبيعة وخضوعه لنفس المراحل التي تمر بها.

والإضافة إلى الانتقادات السابقة، فقد تحدث مالك بن نبي بنفسه في كتابه الصراع الفكري في البلاد المستعمرة عن الانتقادات الكبيرة التي تعرض لها كتابه شروط النهضة، من طرف جمعية العلماء المسلمين ومن طرف جريدة الحزب الوطني وحتى من طرف الجريدة المركزية للحزب الشيوعي، حيث كان يرى أن كل هذه الانتقادات كانت بإيعاز من المستعمر الفرنسي حيث يقول: "...عندما ظهرت الطبعة الأولى من كتابي "شروط النهضة ومشكلات الحضارة" منذ خمسة عشر عاما، بالجزائر، وضع الاستعمار اصبعه على "الزرر" الخفي، فانطلق التيار الخفي بثلاثة ردود أفعال..." (أورد في: بن نبي، 1981).

ورغم هذه الانتقادات يبقى مالك بن نبي واحداً من أهم مفكري الحضارة في العصر الحديث، باعتراف أغلب العلماء والباحثين المسلمين وحتى الغربيين، حيث قدم رؤية تحليلية حاول من خلالها التنظير للمجتمعات الإسلامية، ومساعدتها للتغلب على مركب نقصها تجاه الحضارة الغربية، وللهذه مرة أخرى بعد سقوطها والتخلص من حالة الركود وسكون أو التخلف التي تعيشها، بكل ما تتميز به من جمود اجتماعي ومن موت للأفكار، ومن تفتت للصلات والعلاقات الاجتماعية، وذلك من خلال إرشادها للطريقة التي تمكنها من الصعود في الدورة الحضارية من جديد، والمساهمة مرة أخرى في صناعة التاريخ.

❖ قائمة المراجع:

1. بن الحسن، بدران بن مسعود. (ديسمبر يناير 2000). "الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أنموذج مالك بن نبي"، سلسلة كتاب الأمة العدد (73). الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
2. البناء، فؤاد عبد الرحمان. (أفريل ماي 2013). "العروج الحضاري بين مالك بن نبي وفتح الله جولين"، سلسلة كتاب الأمة، العدد (155). الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
3. مسقاوي، مر كامل. (2013). "في صحبة مالك بن نبي: مسار نحو البناء الجديد"، الجزء الأول، دمشق: دار الفكر.
4. بن نبي، مالك. (2002). "بين الرشاد والتهيه"، دمشق: دار الفكر.
5. بن نبي، مالك. (2002). "تأملات"، (ط2)، دمشق: دار الفكر.
6. بن نبي، مالك. (2000). "القضايا الكبرى"، (ط2)، دمشق: دار الفكر.
7. بن نبي، مالك. (1981). "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة"، دمشق: دار الفكر.
8. بن نبي، مالك. (2000). "الظاهرة القرآنية"، (ترجمة عبد الصبور شاهين)، دمشق: دار الفكر.
9. بن نبي، مالك. (2007). "العفن"، (ترجمة نور الدين خندودي)، الجزائر: دار الأمة.
10. بن نبي، مالك. (2000). "المسلم في عالم الاقتصاد"، دمشق: دار الفكر.
11. بن نبي، مالك. (2002). "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، (ترجمة بسام بركة، وأحمد شعيب)، دمشق: دار الفكر.
12. بن نبي، مالك. (2000). "مشكلة الثقافة"، (ترجمة عبد الصبور شاهين)، (ط5)، دمشق: دار الفكر.
13. بن نبي، مالك. (1986). "مشكلات الحضارة وشروط النهضة"، (ترجمة عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين)، دمشق: دار الفكر.
14. بن نبي، مالك. (2005). "من أجل التغيير"، دمشق: دار الفكر.
15. بن نبي، مالك. (1986). "ميلاد المجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية"، (ترجمة عبد الصبور شاهين)، (ط3)، الجزء الأول، دمشق: دار الفكر.
16. بن نبي، مالك. (2002). "وجهة العالم الإسلامي"، (ترجمة عبد الصبور شاهين)، دمشق: دار الفكر.
17. Bennabi, Malek. (2005). "La lutte idéologique", l'algérie: el borhane.
18. Bennabi, Malek. (2006). "Vocation de l'islam", l'algérie: Editions ANEP.
19. Boukrouh, Noureddine, Pensée de Malek Bennabi: la civilisation, Récupéré (2017, août 19), <https://oumma.com/pensee-de-malek-bennabi-la-civilisation>